

المقامة السامرية

(حديث الغربة)

حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ أَبَانَ، قَالَ كُنَّا سَامِرِينَ بِبَغْدَادٍ فِي مَجْلِسِ أَبِي الْمَعَالِي، وَكَانَ ذَلِكَ فِي إِحْدَى اللَّيَالِي، ذَوَاتِ النُّجُومِ اللَّالِي؛ فَاسْتَبْطَأْنَا مِنْهُ الْكَلَامَ، حَتَّى هَمَّ بَعْضُنَا بِالْقِيَامِ، وَغُلِبَ بَعْضُ الْقَوْمِ فَنَامَ؛ ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ سَمِعْنَاهُ يَتَنَفَّسُ الصُّعْدَاءَ، وَغَابَ عَنْ مَحِيَّاهُ سَمْتُ السَّعْدَاءِ، وَأَخْبَرَنَا عَنْ أَمْرِهِ الْعَجِيبِ، وَعَنْ سَبَبِ حَالِهِ الْغَرِيبِ؛ فَقَالَ وَهُوَ يَسْكُبُ الشَّرَابَ:

سَأُحَدِّثُكُمْ عَنْ أَوَّلِ أَيَّامِ الشَّبَابِ، وَمَا عَانَيْتُ مِنَ الْبُعْدِ عَنِ الدَّارِ وَالْأَحْبَابِ، وَعَيْشِ الْغُرْبَةِ وَمَعَاشِرَةِ الْأَغْرَابِ، مَا أَوْزَنَنِي طَوْلَ السَّهْرِ، وَضَعْفَ الْبَصَرِ، وَبُغْضَ السَّفَرِ؛ فَفِي لَيْلَةٍ مِثْلَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ بِمَجْلِسِ سَمَرٍ، اجْتَمَعْنَا فِيهِ بِبَعْضِ الْأَدْبَاءِ، وَصَادَفَ أَنْ كَانُوا كَحَالِي مِنَ الْغُرَبَاءِ، فَيَا لِحَظِّي قَدْ حَظَيْتُ بِأَحْسَنِ النَّدَمَاءِ، مَجْلِسُهُمْ لَا تُكْبِحُ فِيهِ جَمَاحُ الْأَهْوَاءِ، لَمَّا يَحْوِيهِ مِنْ فَنُونِ الْأَدَبِ الْعَظِيمَةِ الْإِغْرَاءُ؛ فَاقْتَرَحَ أَحَدُهُمْ وَقَدْ هَاجَ الشَّوْقُ فِي صَدْرِهِ، أَنْ نَتَبَارَى بِشَعْرِ الْغُرْبَةِ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ كُلُّ إِلَى قَبْرِهِ؛ فَأَنْشَدَ قَائِلًا مِنْ فَوْرِهِ:

قَالَتْ وَقَدْ وَدَّعْتُهَا = أَتُغَادِرُ الْفُرْشَ النَّجَادُ

أَتُفَارِقُ الْأَرْضَ الَّتِي = فِي عَاتِقِيكَ لَهَا سَدَادُ

فَأَجَبْتُهَا مُتَنَهِّدًا = وَالْقَلْبُ مَأْسُورٌ مُقَادُ

طَلَبُ الْأَمَانِ مُفَرِّقٌ = بَيْنَ الْأَحِبَّةِ يَا سُعَادُ

وما أن بدأت رحي الشَّعرِ في المجلسِ تدور، وخرجت الألفاظ والمعاني من صدورِ كأنها
التَّور؛ حتى جاء الدَّورُ إليّ، وتناثرت العباراتُ بين يديّ؛ فقلتُ وقد انهال الشوقُ عليّ:

يُسائلُني الكثيرُ -إذا التَّقينا- = عَنِ الأوجاعِ -هَذَا ما عَنِنا-؟

وَعَيْنُ مِنْكَ قد ذرَفَتْ دُموعاً؟ = وَجِسْمُكَ في نُحُولٍ -ما رَأَيْنا-؟

وَصَوْتُ مِنْكَ مَبْحُوحٌ؟ وَوَجْهُكَ = فَفِيهِ شُحُوبَةٌ؛ بَانَثِ إِلَيْنَا؟

أَجَبْتُ السَّائِلِينَ بأنَّ ما بِي = جِرَاحُ القَلْبِ؛ هذا ما جَنَيْنَا

يُصَاحِبُهَا قُصُورٌ فِيّ، بَيْنَا = سَأَبَقِي صَابِراً، أَمْشِي الهَوَيْنَا

وإنْ كَانَتْ بِقَلْبِي نَارُ (شَوْقٍ) = تُدَايِنُنِي مِنَ الإِسْرَاعِ دَيْنَا

وَكَمْ تَحْتَاجُهُ نَفْسِي، وَلَكِنْ = نَتَائِجُهُ -إذا جاءَتْ-: عَلَيْنَا!

فَقَالُوا اصْبِرْ، وَثَابِرْ، ثُمَّ صَابِرْ = فَعُقْبَى الصَّبْرِ مُحَمَّدٌ لَدَيْنَا

وَلَا تُخَضِّعْ لِغَيْرِ الرَّبِّ -دَوْماً- = وَكُنْ مَعَهُ -إِذَنْ- قَلْباً وَعَيْنَا

فإذا بالجمع قد تَلَأَلَتْ أَعْيُنُهُمْ، وَبَرِيقُ الدَّمْعِ لَاحَ لِمَنْ يُخَاطِبُهُمْ؛ فَطَلَبُوا الْمَزِيدَ، وَالْحُورَا

بِتَشْدِيدٍ، فَتَنَظَّمْتُ لَهُمْ مُعَبِّراً عَنْ نَفْسِي وَالْهَوَى، وَكَلَّمْتُ وَجْدٌ وَجَوَى، فَقُلْتُ:

كَانَتْ وَمَا كَانَتْ * قَامَتْ وَمَا نَامَتْ * مِنْذُ الصَّبَا رَامَتْ

عَيْنَ الْهَوَى تَحْيَا

سَمِعِي لَهَا أَزْعَى * عَيْنِي لَهَا مَرَعَى * قَلْبِي لَهَا مَسْعَى

كَيْ بِالْهُوَى تَحْيَا

كَانَتْ بِذِي الْحَالَةِ * صَنَعَتْ لَهَا هَالَةً * لَا، مَا شَكْتُ عَالَةً

إِذْ بِالْهُوَى تَحْيَا

مِنْهَا انْتَهَى صَبْرِي * كَفَى عَلَى صَدْرِي * اخْتَزْتُ، لَا أُدْرِي

كَمْ بِالْهُوَى أَغْيَا؟!

قال حَفْصُ بْنُ أَبَانَ -وكان عليه الطَّرْبُ قَدْ بان-: لَيْتَنِي كُنْتُ قَرِيبًا فَأَوَاطِبُ عَلَى مَجْلِسِ
أَبِي الْمَعَالِي، صَاحِبِ الْآدَابِ وَالْدَرَرِ الْعَوَالِي، فَأَنْهَلَ مَا فِيهِ مِنَ الْكَلِمِ الْعَوَالِي... وَلَكِنِّي مَرَرْتُ
بِمَجْلِسِهِ بَعْدَ ذَلِكَ بَعَامٍ، بِنَاحِيَةِ الْكَرْخِ مِنْ دَارِ السَّلَامِ، وَكَانَ فِي يَوْمِ عِيدٍ مِنَ الْأَيَّامِ، وَرَأَيْتَهُ
يَنْشُدُ لِنَفْسِهِ وَقَدْ اَزْدَادَ أَمَامَهُ جَمْعُ الْأَقْوَامِ:

الْعِيدُ عِيدُ الْقَاطِنِينَ بِأَرْضِهِمْ

يَتَمَتَّعُونَ بِرُؤْيَا الْأَحْبَابِ

لَا عِيدُ مَنْ حَلَّ الْأَسَى بِفُؤَادِهِمْ

يَتَحَرَّقُونَ بِلَوْعَةِ الْأَغْرَابِ

بقلم: عَمْرُ السَّنَوِيِّ الْخَالِدِيِّ